المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والفنون - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية
المجلد الثامن - العدد الثاني - ١٣٩٩ - ١٩٧٩

2

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين شيركوه

شاعر الأندلس
يحيى بن حكم البكري الغزال

(١٥٦ هـ ـ ٢٥٠ هـ) = (٧٧٢م ـ ٨٦٤م)

بقلم
عبد القادر زمامة
كلية الاداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
فاس ـ المغرب

عرف عهد الامارة الاموية في قرطبة (١٣٨ ـ ٣١٦هـ) عددا من الشعراء ورواة اللغة والادب . منهم اندلسيون ومنهم وافدون على الاندلس . كانوا على صلة وثيقة بالحياة الادبية والفكرية والسياسية . الا ان المصادر التاريخية والادبية المتعلقة بالاندلس لا تمدنا عنهم الا بمعلومات دون المستوى المطلوب والمرغوب فيه لدراسة شخصيتهم وآثارهم . ففي تراجمهم لا نجد منها الا جوانب سطحية ومعلومات مقتضبة لا تكفي للعلم بمكوناتهم وعناصر شخصياتهم وثقافاتهم . وفي انتاجهم لا نجد الا النزر اليسير الذي لا يكفي للحكم على مواهبهم ومميزاتهم والآفاق التي حلقوا فيها ابتكارا او تقليدا ...

ومن اشهر هؤلاء يحيى بن حكم البكري الجياني الملقب بالغزال الذي كان يعرف في العصور الاولى عند الاندلسيين وعند غيرهم بشاعر الاندلس لما ترك وراءه من شهرة ذائعة في المشرق والمغرب ...

ينسب هذا الشاعر الى مدينة جيان الشهيرة الواقعة في وسط الطريق بين غرناطة وقرطبة ولا ندري اصل ذلك . هل ولد الشاعر بها وانتقل منها الى قرطبة ام ان اصل اسرته كان من جيان فلذلك نسب اليها ...؟ والبكري نسبة الى القبيلة العربية المتفرعة عن ربيعة . وهي بكر بن وائل بن قاسط . وقد اشار ابن حزم الى بطون هذه القبيلة(١) فهو عربي الدم جياني الاصل قرطبي الدار ...

ويعين الحافظ الحميدي لميلاد الغزال سنة ١٥٦هـ = ٧٧٢م لكنه لا يعين مكان هذه الولادة(٢) ايام امارة عبدالرحمن الداخل . وقد توفي هذا الامير سنة ١٧٢هـ وعمر الغزّال ست عشرة سنة وامتدت الحياة به فشاهد امارة هشام بن عبدالرحمن . وامارة الحكم الربضي وامارة عبدالرحمن الاوسط ومات في امارة محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٥٠هـ = ٨٦٤م وهو ابن اربع وتسعين سنة(٣) .

وفي هذه المدة المتطاولة شاهدت الاندلس عدة تطورات وتحركات سياسية وفكرية وادبية وحضارية تبلورت فيها الحياة العامة . وتكونت

(١) الجمهره . تحقيق عبدالسلام هرون ص ٤٦٩ وانظر النفح ج ٢ ص ٢٥٤ من طبعة بيروت ١٩٦٨م .
(٢) جذوة المقتبس ص ٢٥٢ .
(٣) المصدر السابق .

WWW.ATTAWEEL.COM

الشخصية الاندلسية في ميادين الحكم والمذهبية الفقهية والثقافة الادبية والفكرية . وذلك لعدة عوامل واسباب داخلية وخارجية .

منها رحلات الاندلسيين الى المشرق لطلب المعرفة وربط السند والاتصال بأعلام اللغة والشعر والفقه والحديث ... ورحلات المشرقيين الى الاندلس لطلب الشهرة والحظوة والعيش في ظلال الدولة الناشئة ؛ ومنها طبيعة العملية التي تم فيها لقاء عناصر من انسكان ؛ عرب وبربر واوربيين ووافدين من اقطار شتى . وكل عنصر ياخذ ويعطي ويؤثر ويتاثر ويسهم في الحياة العامة حسب مواهبه ومطامحه .

ومنها حرص الامراء الامويين على حمل مشعل الحضارة العربية والثقافة الاسلامية في الاندلس كما حمله خصومهم العباسيون في العراق واقطار المشرق الاخرى ...

ونظرة عامة على كتب التاريخ ، والتاريخ الاندلسي ، تعطينا امثلة لما كان يجرى في هذه الحقبة من اتصال اهل الاندلس بتيارات المشرق الدينية والمذهبية والادبية والحضارية . زيادة على ما يحمله الوافدون معهم من كتب ومعلومات وثقافات ...

ويحيى بن حكم الغزال كان يعيش في هذه الاجواء وينال منها ما يناله الاخرون ، وتكيفت حياته وثقافته ونظرته الى الحياة بالتيارات الجارية في عصره ومصره . وان كنا لا نملك معلومات عن سني طفولته وشبابه ومراحل تكوينه الثقافي والفكري . وانما نقدر انه كان فتى يتوقد ذكاء ويفيض نشاطا وعزما وقد حباه الله من جمال الصورة وسلامة الجسم وقوة الشخصية ما جعله مرموقا بين طلبة الادب وعشاق المعرفة في عاصمة قرطبة الحافلة بالمواهب والكفاءات والعبقريات .

ويحدثنا ابن سعيد نقلا عن ابن حيان(٤) ان الشاعر الاندلسي الرحالة عباس بن ناصح الثقفي الجزيري شاعر الحكم الربضي وقاضي الجزيرة الخضراء وفد مرة على قرطبة في عهد الحكم فجاءه ادباؤها للاخذ عنه فمرت عليهم قصيدة :

لعمرك ما البنوى بعار ولا العدم
اذا المرء لم يعدم تقى الله والكرم

فلما انتهى القارىء الى قوله :

تجاف عن الدنيا فما لعاجز
ولا حازم الا الذي خط بالقلم

فقال له يحيى الغزال ـ وهو حدث ـ ايها الشيخ ، ومالذي يصنع مفعل مع فاعل ...؟ فقال : وكيف تقول انت ...؟ فقال :

« تجاف عن الدنيا فليس لعاجز »

فقال عباس : والله لقد طلبها عمك ليالي فما وجدها ...

فهذا الخبر الذي رواه ابن سعيد عن ابن حيان افادنا ان يحيى الغزال اخذ الادب عن عباس ابن ناصح الشاعر الرحالة الذي رحل الى العراق واتصل بالشاعر ابي نواس وانشده شعره ورجع الى الاندلس مملوء الوكاب من ثقافة المشرق وادبه(٥) ولكن هذا الخبر يثير في نفسي علامة استفهام وهي : اذا كان الغزال ولد سنة ١٥٦هـ فكيف يكون « حدثا » على عهد امارة الحكم الربضي الذي تولى الحكم من سنة ١٨٠ هـ الى سنة ٢٠٦ هـ . فهب ان عباس بن ناصح زار قرطبة سنة ١٨٠ هـ وهي السنة الاولى من حكم هذا الامير ؛ فان عمر الغزال اذ ذاك يكون اربعا وعشرين سنة ... والانسان في مثل هذه السن شاب متكامل الشخصية لا حدث ..

وعلى كل فان هذا الخبر هو اول معلم من معالم اخبار الغزال ـ فيما نعلم ـ حيث اننا لم نعثر في المصادر التي بين ايدينا على خبر آخر يتعلق به على عهد هشام بن عبدالرحمن ...

ويلفت النظر ان الاستاذ عبدالله عنان في كتابه دولة الاسلام في الاندلس ذكر ان يحيى الغزال مدح الحكم الربضي بهذين البيتين(٦) :

كأن الملوك انقلب عندك خضعا
خواضع طير تتقي الصقر تبتعد
تقلب فيهم مقلة حكمية
فتخفض اقواما وتقوما تسود

وان الغزال كان من اعلام عهد الحكم . كثير التعريض بفقهاء عصره حتى سخطوا عليه ورموه بالزندقة وقد قال فيهم :

---

(٤) المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٢٢٤ ويلاحظ ان عباس بن ناصح نسبه في كتاب نيد تاريخية من مفاخر البربر ص ٦٢ الى مصمودة القبيلة البربرية الشهيرة ...

(٥) طبقات النحويين للزبيدي ص ٢٨٥ .

(٦) دولة الاسلام في الاندلس ص ٢٥٠ الطبعة الثالثة .

لست تلقـــى الفقيـــه الاغنيـــا
ليت شعـــري من اين يستغنـــونا
تقطـــع البر والبحـــار طلاب الر
زق والقـــوم ههنـــا قاعـــدونا
ان للقـــوم مضـــربا غاب عنـــا
لم يصب قصد وجهـــه الراكبونا

ونفس هذا او قريب منه كتبه الاستاذ عنان في ترجمة يحيى الغزال من كتابه تراجم اسلامية شرقية واندلسية(٧) الا انه لم يعين لنا مصدره في هذه النقطة بالذات . نعم ذكر في مصادر كتابه : دولة الاســـلام في الاندلس : مجمـــوعة اوراق مخطـــوطة في السفر الاول من تاريخ ابن حيـــان تشتمل على حوادث سنة ١٨٠هـ ـ ٢٣١هـ عثر عليها نيفي بروفنسال ونقل منها الاستاذ عبدالله عنان ثم ضاعت الآن ... فلعل هـــذه الاوراق الفريدة من تاريخ ابن حيان هي مصدر الاستاذ في المعلومات التي سطرها عن الغزال ونشـــاطه على عهد الحكم ..

فاذا صح هـــذا ـ والقـــرائن كلها تدل على صحته ـ فان الغزال يكون مسايرا لحملة الحكم على فقهاء قرطبة الذين شهروا به وألبـــوا الراي العام عليه وحدثت بذلك فتن شهـــيرة في ربض قرطبة الجنوبي المـــسمى « شقندة » في رمضان من سنة ٢٠٢هـ = ٨١٨م(٨) ... وابيات التمريض بالفقهاء ليست غريبة عما اشتهر به الغزال مـــن حـــدة اللســـان كما نص على ذلك من كتبـــوا عنـــه(٩) .

وعلى عهد عبدالرحمن الاوسط (٢٠٦هـ ـ ٢٣٨هـ) نبدأ في العثور على بعض اخبار الغـــزال ومقطعاته وقصائده وبعض الاعمال التي قام بها . وكانت شخصيته قد برزت في قرطبة واشتهـــر عند رجال الحكم والسياسة وخاض معارك لاثبات الذات والظفر بالشهرة والجاه واخـــذ مكانته بين اعلام العصر بصفة كونه شاعرا فلكيا منجما واسع الثقافة يجد الحكام فيه رغبتهم من سعة الحيلة وحسن التدبير والقيـــام بالمهمـــات وخـــوض الغمرات ...

يحدثنا ابن دحية الكلبي(١٠) ان عبدالرحمن الاوسط ولاه قبض الاعشار واختزانها في الاهراء لكنه استغل بعض ظروف انحباس المطر فبـــاع المذخرات بالسعر المرتفع ، ثم نزل المطر ورجعت الاسعار الى معتـــادها فاشترى ما يماثل تلـــك المذخرات بالثمن المنخفض وربح الفرق ... وقد تعرض لسخط الامير وثقل وسجن ... ثم وقع العفو عنه بعد ان توســـل بشعر قدمـــه الى عبدالرحمن ...

من مبلـــغ عني أمـــام الهـــدى
الوارث المجـــد ابـــا عـــن اب
انـــي اذا اطلب مداحـــه
قصـــدت في القـــول فلم اطلب
لا فـــك عني اللـــه ان لـــم تكن
اذكرتنـــا مـــن عمـــر الطيب
واصـــبح المشـــرق مـــن شوقـــه
اليـــك قـــد حن الى المغـــرب
منبـــره يهتف مـــن وجـــده
اليـــك بالسهـــل وبالمرحـــب
اطربـــه الوقت الذي قـــد دنا
وكان مـــن قبلك لـــم يطـــرب
هفـــا بـــه الوجـــد فلو منبر
طـــار لوافى خطفـــة الكوكب
الى جميل الوجـــه ذى هيبـــة
ليست لحـــامي الغابـــة المغضب
لا يمكـــن الناظـــر من رؤيـــة
الا التمـــاح الخـــائف المذنب
ان ترد المـــال فاني امـــرؤ
لـــم اجمـــع المـــال ولـــم اكسب
اذا اخـــذت الحـــق مني فـــلا
تلتمس الربـــح ولا ترغـــب
قد احسن اللـــه الينـــا معـــا
ان كان راس المـــال لـــم يذهـــب

ويظهر ان الامير عبدالرحمن كان لا يستغني عن الغزّال وارائـــه في تدبير الحـــكم وتصريف السياسة وانه ضمه الى رجال دولته ليكون قريبا منه عند الحاجة ، وكانت دولة هذا الاخير حافلة

(٧) انظر ص ١٦٠ من الطبعة الثانية .
(٨) الحلة السيراء لابن الابار تحقيق مونس ج ١ ص ٤٤ .
(٩) المقتبس لابن حيان تحقيق محمـود مكي ص ٦٤ بيروت ١٩٧٣م .
(١٠) الطرب ص ١٣٦ القاهرة ١٩٥٤م .

برجال المعرفة . وكان هو نفسه واسع الآفاق في تكوينه وثقافته يحب الحكمة والتنجيم ويقرب رجالهما . وعلى عهده دخل زرياب الاندلس كما دخلت نفائس العراق والمشرق وخطت البلاد خطوات حضارية وثقافية نلمس اثارها في كتب المصادر المختلفة ...

وتعرض الغزال لسخط الامير عبدالرحمن مرة ثانية حينما هجا ضيفه زريابا هجوا مقذعا تحرج ابن دحية من روايته في كتابه(١١) وشكا زرياب امره الى الامير فأمر بنفي الغزال عن الاندلس ثم تشفع فيه اكابر الدولة فتركه ...

ويزيدنا ابن دحية ان الغزال لم يطب نفسا بالمقام بالاندلس فرحل الى العراق بعد موت الحسن بن هاني بمدة يسيرة نوجدهم يلهجون بذكره ولا يساوون شعر احد بشعره : فنظم قصيدة من شعره وعرضها عليهم منسوبة للحسن ابن هاني « ابي نواس » فلما استحسنوها اخبرهم انها له ... وانه اقام في رحلته مدة يتجول في ديار الشرق . وما انفك في كل قطر منه من غريبة يطلعها . وطريفة يبدعها ... وانصرف الى الاندلس وهو قد ترك شرب الخمر وتزهد في الشعر وشارف الستين(١٢) ...

فاذا اصحت رواية ابن دحية فان الغزال يكون قد استفاد من المشرقين وافادهم وعرف ماجد من فنون ادبية وطريقة شعرية . وحيث اننا لا نملك عن هذه الرحلة واخبارها الا ما جاء في كتاب المطرب لابن دحية فينبغي ان نتحفظ في الاستنتاج الى ان يظهر ما يثبتها او ينفيها(١٣) ... من النصوص القديمة ...

على انه مما يثير الاستفهام في هذه الرواية هو ان ابن دحية يقول ... ان الغزال دخل العراق بعد موت ابي نواس « بمدة يسيرة » ومعلوم ان ابا نواس توفي سنة ١٩٨هـ = ٨١٤م ... وان زريابا دخل الاندلس سنة ٢٠٦ هـ = ٨٢١م ...

فلو فرضنا ان الغزال هجا زريابا في نفس السنة التي دخل فيها الى الاندلس ... وانه رحل الى العراق في نفس السنة ... فيكون بين موت ابي نواس وبين رحلة الغزال الى العراق ثمان سنوات ... وثمان سنوات ليست مدة يسيرة ..

وتعرضت الاندلس على عهد عبدالرحمن الاوسط الى غزو النورمان(١٤) وهم الذين يسميهم مؤرخو الاندلس بالمجوس وقد زرعوا الرعب في شواطىء البلاد واحتاج ايقاف شرهم مجهودات برية وبحرية عظيمة وذلك سنة ٢٣٠هـ = ٨٤٤م .

كما وفد عليها سفراء بيزانطة متوددين لبلاط قرطبة بعدما تعرضت بلادهم لغزوات العباسيين ولا سيما الغزوة الكبرى التي تم فيها فتح عمورية وتدميرها ، وخلد ذلك الشاعر ابو تمام في بائيته التي مدح بها المعتصم العباسي(١٥) :

السيف اصدق انباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

وذكر الامبراطور توفلس بقوله :

لما راى الحرب راى العين توفلس
والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرف بالاموال جريتها
فعزه البحر ذو التيار والحدب

ووقع اختيار عبدالرحمن الاوسط على كاتبه المقرب اليه يحيى الغزال ليكون سفيره المعبر عن رايه السياسي لما يعهده فيه من ذكاء ومعرفة وحسن تدبير ؛ فارسله الى بيزنطة صحبة شخص آخر يسمى يحيى بن حبيب وحملهما رده السياسي على عرض الامبراطور(١٦) وتمت الرحلة بطريق البحر وشاهد الغزال في بيزنطة معالمها الحضارية ونظامها السياسي والاجتماعي وتهيأت له مناسبات ليسجل ارتساماته وعواطفه ، وقد ذكر ابن دحية الكلبي في كتاب المطرب عند ترجمة الغزال عددا من المقطعات التي نظمها في هذه الرحلة وفي الشخصيات التي اتصل بها ولا سيما الامبراطورة ونجلها ...

وقد نجح الغزال في سفارته ورجع الى قرطبة فذاعت اخباره واشعاره عن رحلته واختلطت فيها الحقائق بالاساطير ... ثم ارسله

---

(١١) المصدر السابق ص ١٤٧ .
(١٢) المصدر السابق ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .
(١٣) جعل المقري في الباب الخامس من النفح الغزال من الراحلين عن الاندلس الى المشرق . ونقل دخوله الى العراق عن ابن دحية ... انظر ج ٢ ص ٢٦٠ .
(١٤) البيان المغرب لابن عذارى ص ٨٧ ـ ٨٨ ج ١ .
(١٥) الاسلام في المغرب والاندلس ليفي بروفنسال ص ٩٧ ـ ٩٨ من الترجمة العربية ...
(١٦) المصدر السابق ص ١١٥ .

عبدالرحمن بعـــد مدة في سفارة اخرى الى بلاد المجوس « النورمان » الذين كانوا يسكنون البلاد الاسكندنافية وما حولها ...

وخطر النورمان كان عظيما وشديدا بسبب غاراتهم المتعددة على الشواطيء الاوربية وضمنها بلاد الاندلس ... وكون عبدالرحمن يرسل اليهم سفيرا للمهادنة والصلح امر تمليـــه المصـــالح السياسية والعسكرية لدولة الاندلس فلذلك ارسل يحيى للقيام بهذه المهمة بعد نجاحه في سابقتها ..

وابن دحية الذي ذكر هذه الرحلة كان يهمه قبل كل شيء ان يذكر النصوص الادبيـــة التي رواها للغزال ولا يهمه ان يفصل خبرها لانه اديب محاضر ليس من منهاجه التحقيق والتدقيـق في الاخبار والحوادث ... ومن اجل ذلك اختلطت في كلامه رحلة القسطنطينية برحلة بلاد النورمان وهذا ما حمل بعض الباحثين على الشك في رحلة الغـــزال الى بلاد النورمان(١٧) بينما اثبتها وايد وقوعها آخرون(١٨) .

هذا ما استطعنا معرفته عن نشاط الغـزال على عهد عبدالرحمن الاوسط اما عن نشـــاطه في دولة ابنه محمد بن عبدالرحمن ... فاننا نجده يهنئه ببيتين رواهما ابن حيان هما :

ان سمي النبي فضلـــه اللـــه
على كـــل مـــن مضى وبقـــي
مـــد لـــه الملك ساعديـــه لدن
اقبـــل للحب مـــد معتنـــق

كما نجده يروى له قصيدة نهى فيها ابن اخته ابراهيم عن لعبة الشطرنج التي كانت قد انتشرت في قرطبة بين الخواص والعوام(١٩) .

وودع الغزال هذه الحياة على عهد هذا الامير سنة ٢٥٠ بعدما عاصر خمسة امراء على حد قوله :

ادركت بالمصـــر ملـوكا اربعـــة
وخامســا هـــذا الذي نحن معـــه

ويلفت النظر ان الحافظ الحميدي في الترجمة التي كتبها للغزال من كتاب جذوة المقتبس نعتـه بالرئيس ... ولا ندري مراده بهذا اللقب ...

فهل كان الغزال رئيس الكتاب في عهـد عبد الرحمن الاوسط ...؟

ام لقب بذلك لرئاسته قبض الاعشار والسهر على امر المذخرات ...؟ ام لرياســـته لسفارتي بيزانطة وبلاد النورمان ...؟

اما عن شعر الغزال فان الحافظ الحميـدي يحدثنا(٢٠) ان حبيب بن احمد الشطجيري ـ وهو شاعر من اهل قرطبة ادرك ايام الحكم المستنصـر وبلغ سنا عالية رآه الحميدي في ايـام صباه ولم يسمع منه شيئا ـ جمع ديوان شعر يحيى بن حكم الغزال ورتبه على الحروف .. وهذا الديـوان لا نعرف عنه خبرا ولا مستقرا ـ فيما نعلم ـ لحـد الآن ...

والذي امكننا الاطلاع عليه من شعر الغـزال لا يعدو تلك المقطعات والقصائد والابيـات المبعثرة في المصادر المختلفة التي تحدثت عن الادب الاندلسي.

ـ كالعقد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨هـ ـ ٨٤٢م .

ـ وبهجة المجالس للحـــافظ ابن عبدالبـر المتوفى سنة ٤٢٩هـ = ١٠٧٦م(٢١) .

ـ والمقتبس لابي مروان ابن حيان المتـوفى سنة ٤٦٩هـ = ١٠٧٦م .

ـ وجذوة المقتبس للحافظ الحميدي المتوفى سنة ٤٨٨هـ .

ـ والمغرب لابن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥هـ = ١٢٩٤م .

ـ والمطرب لابن دحية الكلبي المتوفى سـنة ٦٣٣هـ = ١٢٣٥م .

ـ ونفح الطيب للمقري المتوفى سنة ١٠٤١هـ = ١٦٣١م .

وغيرها من المصادر التي اشارت الى هـــذا الشاعر بوجه ما ويتكون من ذلك مجموعة شعريـة لا بأس بها وان كانت لا تستوعب كل ما نريد معرفته من عناصر شخصيته وابعاد شاعريته ...

واما اطول القصائد التي عثرنا عليها للغـزال

---

(١٧) المصدر السابق ص ١١٢ .
(١٨) دولة الاسلام في الاندلس ص ٢٨٢ وكتاب تراجم اسلامية شرقية واندلسية لعبدالله عنان الطبعة الثانيـــة ص ١٦٢ .
(١٩) المقتبس تحقيق محمود مكي ص ١٢٤ و ص ١٨١ .
(٢٠) جذوة المقتبس ص ١٨٦ .
(٢١) طبعة بهجة المجالس بتحقيق محمد مرسي الخولي .

فهي ثلاث قصائد احتفظ لنا بها ابن عبد ربه في العقد وهذا نصها(٢٢) ...

كتبت وشوق لا يفارق مهجتي
ووجدي بكم مستحكم وتذكري
بقرطبة قلبي وجسمي ببلدة
نأيت بها عن اهل ودي ومعشري
سقى الله من مزن السحائب ثرة
دياركم اللاتي حوت كل جوذر
بحق الهوى اقرئ السلام على التي
اهيم بها عشقا الى يوم محشري
لئن غبت عنها فالهوى غير غائب
مقيما بقلب الهائم المتفطر
كأن لم ابت في ثوبها طول ليلة
الى ان بدا وجه الصباح المنور
وعانقت غصنا فيه رمان فضة
وقبلت ثغرا ريقه ريق سكر
انسى ولا انسى عناقك خاليا
وضمي ونقلي نظم در وجوهر
فواحزني ان فرق الدهر بيننا
وكدر وصلا منك غير مكدر
لقد غررت نفسي بحبك ضلة
ولو علمت عقبى الهوى لم تغرر
بكيت فما اشفى البكا عند صحبتي
وشوقي الى رئم من الانس احور
سلام سلام الف الف مكرر
ويا حاملا عني الرسالة كرر
الا يا نسيم الريح بلغ سلامنا
وصف كل ما يلقى الغريب وخبر
وقل لشعاع الشمس بلغ تحيتي
سميك واقراها على آل جعفر

* * *

اقر السلام على الف كلفت به
قد رمت صبرا وطول الشوق لم يرم
ظبي تباعد عن قربي وعن نظري
فالنفس والهة من شدة الالم
كنا كروحين في جسم غذاؤهما
ماء المحبة من هام ومنسجم
الفين هذا بهذا مغرم كلف
لا واحد في الهوى منا بمتهم
له تلك الليالي والسرور بها
كانما ابصرتها العين في الحلم
ففرق الدهر شملا كان ملتئما
منا وجمع شملا غير ملتئم
ما زلت ارعى نجوم الليل طالعة
ارجو السلو بها اذ غبت عن نجمي
نجم من الحسن ما يجرى به فلك
كانه الدر والياقوت في النظم
ذاك الذي حاز حسنا لا نظير له
كالبدر نورا علا في منزل النعم
وقد تناظر والبرجيس في شرف
وقارن الزهرة البيضاء في توم
فذاك يشبهه في حسن صورته
وذا يزيد بحظ الشعر والقلم
اشكو الى الله ما القى لفرقته
شكوى محب سقيم حافظ الذمم
لو كنت اشكو الى صم الهضاب اذن
تفطرت للذي ابديه من الم
يا غادر لم يزل بالغدر مرتديا
اين الوفاء ابن لي غير محتشم
ان غاب جسمك عن عيني وعن نظري
فما يغيب عن الاسرار وانوهم
اني سأبكيك ما ناحت مطوقة
تبكي اليفا على فرع من النشم

* * *

لعمري ما ملكت مقودي الصبا
فامطو للذات في السهل والوعر
ولا انا ممن يؤثر اللهو قلبه
فأمسي في سكر واصبح في سكر
ولا قارع باب اليهودي موهنا
وقد هجع النوام من شهوة الخمر
واوتفه الشيطان حتى اصاره
من الغي في بحر اضل من البحر
اغذ السرى فيها اذا الشرب انكروا
ورهني عند العلج ثوبي من الفجر
كأني لم اسمع كتاب محمد
وما جاء في التنزيل فيه من الزجر

---

(٢٢) انظر العقد ج ٥ ص ٢٥٢ ط لجنة التاليف والترجمة بالقاهرة ، ويلاحظ ان كلمة الغزال وردت هناك مشددة الزاي ...

كفاني من كل الذي أعجبوا بـــه
قليلـة ماء تستقي لي من النهـــر
ففيهـا شـرابي ان عطشت وكل ما
يريـد عيالي للعجـــين وللقـــدر
بخبـز وبقـل ليس لحمـــا وانني
عليـــه كثير الحمد لله والشكـــر
فيا صاحب اللحمان والخمر هل ترى
بوجهي اذا عاينت وجهي من ضـــر
وباللـــه لو عمرت تسعين حجـــة
الى مثلها ما اشتقت فيها الى خمـر
ولا طربت نفسي الى مزهـــر ولا
تحنن قلبي نحـــو عود ولا زمـــر
وقـــد حدثوني ان فيهـــا مرارة
وما حاجة الانسان في الشرب للمـر
اخي عـــد ما قاسيتـــه وتقلبت
عليك به الدنيا من الخير والشـــر
فهل لك في الدنيا سوى الساعة التي
تكون بها السراء أو حاضر الضـــر
فما ساق منها لا يحس ولا يـرى
وما لم يكن منها عمي عن الفكـــر
فطوبى لعبـد اخرج الله روحـــه
اليـــه من الدنيـــا على عمل البر
ولكننـي حـــدثت ان نفوسهـــم
هنالك في جاه جليـــل وفي قـــدر
واجسادهم لا يأكل الترب لحمهـــا
هنالك لا تبلى الى آخـر الدهـــر

* * *

وفي نطاق المعروف من شعر الغزال لحـــد الآن . يبدو شاعرنا شخصية متوثبة في التفكـــير والتعبير والخيال والنظرة السطحية الى الحيـــاة والاحياء . يحاول اثبات ذاته بما يجرى على لسانه جدا وهزلا ومدحا وذما وواقعية ومثالية ...

واذا كان الغزال قد حباه الله من جمـــال الصورة ما صحبه طول عمـــره المديد فان بعض شعره لم يصاحبه هذا الجمال لا في الاسلوب ولا في رونق الديباجة ولا في عمق النظرة والفكرة لان وثباته كانت تدفعه الى نظم ما يريده . وكأنه يلقي خبرا او يرسل سهما او يشيع حلما او ينفث آهة ... وكان الينابيع الوجدانية كانت تشح عليه احيانا .. وتجود عليه اخرى ...

نعم تمده شاعريته المشبوبة بالسخرية اللاذعة والحكاية المشوقة والاشارة المصيبـــة والحكمـــة المثيرة ... ويعمل الزمان عمله في هذا الانســـان الغريب فيشاهد تناقضات الحياة والاحياء ويرجع الى نفسه ليحاسبها ويذكر مصيرها المحتوم في اطار من التشاؤم وكأنه موكل بمصير الانسان يكتشفه لاول مرة ...

فالغزال ـ من خلال شعره الذي بين ايدينا ـ شاعر الخاطر الموهوب لا يتكلف ولا يتصنع يهمـه ان يقول . وربما كان لا يهمه كيف يقول ... ثقة منه بأصالته وشاعريتـــه وشخصيته وتجربتـــه الطويلة ...

وفي هذا النطاق من السذاجة والتوثب تدور نظرات الغزال التي يلقيها على الحياة والاحيـــاء والمراة والرجل والعـــدو والصديق والاغنيـــاء والفقراء . ففي جده وهزله ولذته والمه يظهر انـه كان يدرك تفاهة ما يرى وما يعرف وما يشاهـده على مسرح هذه الحياة ... وكأنـــه زاهـــد او متصوف .

لا ومـــن اعمـــل المطـايا اليـــه
كل مـــن يرتجي اليـــه نصيبـــا
ما ارى ههنـــا مـــن الناســـاس الا
ثعلبـــا يطلب الدجـــاج وذيبـــا
او شبيهـــا بانقط القـــس بعينيـ
ـه الـى فـارة يريـــد الوثـوبا

فاذا اراد الوصف او الحكايـــة انتقـل الى اسلوب السرد المشوب بالخيال والسخرية فيبـدو وكأنه شعر تعليمي ...

قـــال لـي يحيى وصـــرنا
بين مـــوج كالجبـــال
وتولتنـــــا ريـــــاح
مـــن دبـــور وشـــمال
شقت القلعـين وانبتت عـرى تلك الحبـال
وتمطـــى ملـــك المـــو
ت الينـــا عن حيـــال
فرأينـــا الموت راى العين حالا بعـــد حال
لم يكن للقـــوم فينـــا
يا صديقـي راس مـــال

فالبيت الاخير يصور شعورا بسيطا ساذجا

الا ان الشاعر اخرجه مخرج التهكم والسخرية وكأنه يتكلم بكلام العوام ...

وكذلك الشأن في هذه القطعة التي يصور فيها اختيار فتاة ..

وخيرها ابوها بين شيخ
كثير المال او حدث فقير
فقالت خطتا خسف وما ان
ارى من خطوة للمستخير
ونكسن ان عزمت فكل شيء
احب الي من وجه الكبير
لان المرء بعد الفقر يثرى
وهذا لا يعود الى صغير

وقد ذكر ابن حيان ذلك الهجو الذي هجا به شاعرنا القاضي يخامر وقد جاء فيه هذا البيت

فسبحان من اعطاك بطشا وقوة
وسبحان من ولى القضاء يخامرا

كما جاء فيه هذه القطعة :

لقد سمعت عجيبا
من آيدات يخامر
قسرا عليه غلام
طه ، وسورة غافر
فقال من قال هذا ..؟
هذا لعمري شاعر
اردت صفع قفاه
فخفت صولة جائر
اتيت يوما بتيس
مستعبرا متحابر
فقلت قوموا اذبحوه
فقال اني يخامر(٢٢)

وينبغي ان ننبه في الاخير الى تلك النغمة التي نجدها في بعض شعر الغزال والتي تدل على انه عانى العزوبة ... او اختارها لنفسه ... حيث يقول :

انا شاعر اهوى التخلي دون ما
زوج لكيما تخلص الافكار
لو كنت ذا زوج لكنت منغصا
في كل حين رزقها امتار

(٢٢) المقتبس لابن حيان تحقيق محمود مكي ص ٦٤ ـ ٦٥ ط بيروت ١٩٧٢م .

كم قائل قد ضاع شرخ شبابه
ما ضيعته بطالة وعقار
اذ لم ازل في العلم اجهد دائما
حتى تاتت هذه الافكار
مهما ارم من دون زوج لم اكن
كلا ورزقي دائما مدرار
واذا خرجت لنزهة هنيتها
لا ضيعة ضاعت ولا تذكار(٢٤)

وهذه النغمة تناقض ـ في الغالب ـ تلك النغمة التي نجدها في القصيدة التي جاءت في العقد لابن عبد ربه والتي قدمناها سالفا وقد جاء فيها على الخصوص :

كفاني من كل الذي اعجبوا به
قليلة ماء تستقي لي من النهر
ففيها شرابي ان عطشت وكل ما
يريد عيالي للعجين وللقدر

فهل نحمل ما جاء هنا على انه اخبار عن طور من اطوار حياته ... وان ما جاء هناك عن طور آخر هذا ممكن .. الا اننا رغم ذلك ما زلنا نعتقد ان كثيرا من اخبار الغزال وآثاره محجوبة عنا الى الان ...

ولا نودع شعر الغزال دون ان نشير الى ان ابن عبد ربه مؤلف العقد حاول ان يذكر شيئا من شعر الغزال لكن الذين اشرفوا على طبع هذا الكتاب وتحقيقه عمدوا في داخل الكتاب الى ضبط كلمة الغزال وشددوا الزاي وبذلك ظنوا ان صاحب الشعر هو واصل بن عطاء زعيم المعتزلة وكان يلقب بالغزال بتشديد الزاي كما هو معلوم .

وفي الفهارس الموضوعة للاعلام ذكروا الغزال واحالوا مراجع فهرس الاعلام على واصل بن عطاء كما جاء ذلك في فهرس العقد من الطبعة التي اشرف عليها المرحوم الاستاذ سعيد العريان . وشبيه بذلك حدث في الطبعة التي اشرف عليها المرحوم الاستاذ احمد امين ومن معه من الاساتذة المحققين

والواقع ان الشعر الذي اثبته ابن عبد ربه في العقد هو ليحيى بن حكم الغزال « بتخفيف الزاي » لا لواصل بن عطاء الغزال « بتشديد الزاي » .

(٢٤) ظهر الاسلام ج ٢ ص ١١٢ .